دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	أمل الإنسانية و الفن المعماري
المصدر:	الاقلام
الناشر:	وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة
المؤلف الرئيسي:	همفورد، لويس
مؤلفين آخرين:	حمندي، محمود(مترجم)
المجلد/العدد:	س1, ع5
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1965
الشهر:	كانون الثاني / شعبان
الصفحات:	42 - 48
رقم MD:	657796
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الإنسان ، العمارة، الفنون، التقدم العلمي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/657796

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

أمل الانسانية والفن المعماري

بقلم البروفسور لويس ممفورد(*)

ترجمة ـ محمود حمدي

يروق لي ، في معالجتي وضع الانسان الحديث ، ان اتجاوز الأحوال التي ظهرت خلال النصف قرن الأخير ، لأن الحروب والاوبئة والشراسات والابادات التي هوت الى ما دون المستوى الانساني هي أعراض أكثر مما هي بواعث • ان الحقيقة الكبرى التي تكمن وراء حياتنا كلها هي ان البشرية اليوم تواجه وضعاً فريداً في التاريخ : فلقد تحقق البعض من أقدم احلام الانسان ـ كالتحليق في الهواء والمواصلات الآنية ، والعمل من بعيد ـ وهو ما ندعوه اليوم بالسيطرة النائية ـ ، وأخيراً القوة اللامتناهية والغنى الذي لا حد له •

كل هذه المنجزات التي عبر عنها بالاحلام في الاساطير الدينية ترجع بالاصل الى بداية المدنية في أواخر العصر الحجري والعصر البرونزي ، قبل خمسة الى سبعة آلاف سنة • فعند ظهور اولى منجزات القوة والنظام والمعرفة العلمية في حضارتي بابل ومصر العظيمتين على ضفاف الانهر انبثقت هناك رغبة لتوسيع هذه الوظائف الفيزيائية من غير تحديد مهما كلف ذلك الحياة من ثمن وقد أسبغت هذه الحضارات على آلهتها وقتياً قوى لم يكن ملوكها قد بسطوا عليها سلطانهم بعد • ولما لم تكن الوسائط التكنيكية متوفرة فان زيادة القوة البدنية وفيض المواد لم يخصا الا الاقلية الصغيرة : أما باقي السكان فقد ظلوا ضعفاء وفقراء وجهلاء ، لم يساهموا في الحياة الارستقراطية الا بالاسم والانابة فقط • تلك هي الجماهير البشرية المفتقرة الى أبسط متطلبات الغذاء والمأوى ، ولم تكن تفكر الا بوفرة المواد • لذا فاننا ، حتى الآن ، نعجز عن فهم اللامنطقية البيولوجية لأحلام العصر البرونزي الساحرة في المتعة بالخمول والغنى باللامجهود والقوة غير المكبوحة كما لو تحققت بالسحر •

ان القوى التي كانت يومها مقصورة على السلطنة المطلقة أو الآلهة

---

* الكلمة التي القاها الناقد المعماري الاميركي البروفسور لويس ممفورد على طلبة الهندسة المعمارية في روما وقد ترجمت عن مجلة « السجل المعماري » الاميركية لشهر نيسان ١٩٥٩ •

الأولى اصبحت اليوم عالمية : انها ملك جماعي لا يمكن ، بطبيعتها ، احتكارها من قبل جماعة او طبقة او بلد · زيادة على ذلك : ان الوظائف والقوى التي استحوذت عليها الآلهة يوماً بمجرد نزوات بشرية ، أمست اليوم تمارس من قبل عامة الناس ـ كالكتبة والجنود والموظفين المدنيين والمهندسين ـ أناس لم يتمتعوا ، بصورة بادية للعيان ، بأي قدر مساو من الحب والمواهب ·

هذا هو في الحقيقة عصر الانسان الاعتيادي · ان الانسان الاعتيادي ، رغم خلوه من التبصر التأريخي وافتقاره الى السلوك الخلقي الخاص أو القوى الفكرية الشاملة الموحدة بصورة كافية ، أصبح بعملية تكاد أن تكون تلقائية متمتعاً بوظائف وصفات الآلهة البدائية · قد لايدرك تماماً الاحتمالات الفظيعة التي ينطوي عليها هذا الوضع الا اولئك الذين درسوا الديانة البابليـة أو المصرية · ولكن النقطة التي اريد التوكيد عليها هي أن الكثير من معاصرينا ، وربما أغلبهم ، لا زالوا يعيشون خيالياً وعقلياً في العالم البدائي الفظ الذي رافق بداية العصر البرونزي مع انهم فخورون حقـاً بقواهم التنظيميـة وتنظيمات قواهم · عقليتهم ، ويا للغرابة ، فعقليتهم تشابه عقلية الفراعنة الأولين ، أما مفهومهم للمدنية الحديثة فليس محدوداً فحسب ، بل بـال آيديولوجياً ـ وانه في الحقيقة سحيق في القدم كقدم الايمان بالوهية الملوك ·

ولا ينكر تحول الانسان الحديث الى كائن متمتع بسجايا ربانية مـن أجل انجازات مفضلة شاملة الا الجاهل أو الشخص الساذج تماماً ، لأن تاريخ الاعوام الاربعين الماضية والسجلات القدامى للعنف والهمجية المنظمة تدل على اننا قد منحنا بصورة عمياء قوة وسلطة لعناصر الشر والخير في الانسان على السواء · فلقد أمست نتائج كل منجزاتنا البـارعة في العلوم والتكنيك والادارة الاقتصادية والتنظيم ، في الواقع ، متناقضة ومتباينة · ففي كثير من المجالات هناك مكاسب مدهشة لا في مجالات الطاقة والحيوية فحسب، بل في مفاهيم اسمى للعدالة والشرف الانساني أيضاً · وتدبيرات الفائض تؤمل كـل فرد بعضاً من اللهـو والرفاه اللذين لم يعرفهمـا من قبـل الا الارستقراطيون · هذه قيم ايجابية عظيمة ، هل هناك من ينكرها ؟

لقد تخلص الانسان الحديث من عاديات الفقر والفاقة التلقائية ، بيد أن المعروف في كل عملية بيولوجية « ان الكثرة الفائضة قد تكون خطراً على رخاء الحياة بمثل ما تكون الفاقة المعدمة » ، وعلى ذلك ليست الازمـات الاقتصادية وحدها هي التي نواجه فيها « المجاعة في خضم الوفرة الزائدة » · اننا بالفعل نملك قوة أكثر مما يمكن استخدامها بتعقل ، وفي حوزتنا معرفة علمية وتكنيكية أوفر مما يمكن استيعابها وتوجيهها للاعمال النافعة ·

ما نتيجة ذلك ؟ لدينا الآن قوة خارجية تتعدى في مقياسها افظـع احلامنا · ولكن هذه القوة الخارقة يقابلها شعور داخلي بالوهن والغثيان والخيبة واليأس · ولم يحدث قبلا ، وفي أتعس أوجه تطور البشر شؤماً ،

أن كان هناك مثل هذا الشعور العالمي بالقلق ، ومثل هـذا الاحساس بالفراغ وعقم الحياة وبالافتقار العام للمعنى والغرض • ان ما يعرب عنه الفنانون اليوم في رموزهم اللامتناهية عن التفكك ، سيدركه غدا الانسان الاعتيادي الذي ما زال سليماً بدرجة تكفي لأن تؤهله للتمتع بحريتـه الجسمانية

لا غرو في أن يقوم فنان اليوم بعرض ابداعاته في مجال التخريب والعنف وبأشكال طفولية ، عديمة الفحوى التربوي او القيم الأخلاقيـة بدلا من اعتزازه بكل المظاهر الممكنة لقوانا الخيرة • انه ، في الحقيقة ، غالباً ما يظهر حباً عميقاً للرذيلة والشر ، كما اعترف أحد مواطني بلدي — تنسي وليمز — بأمانة في ندوة معه مؤخراً • ليس هناك القليل من فننا الحديث ما يبدي نوعاً من الشدة التمردية ، كما لو كان مستمداً مباشرة من منابع أساسية في أصل التكوين • ولـكن هـذه الظاهرة يجب أن لا تطمس حقيقة ان معناه يكمن في انعدام معانيه ، ومضمونه في افتقـاره الى المضامين — لا ليلتبس بالتجريدية — وان قيمته الوحيدة هي في تكران امكانية القيم • فاذا كانت العلوم الحديثة والتكنولوجيا الجديدة مستمدة من أفكار العصر البرونزي ، فان قسطاً كبيراً من الفن الموضوعي الحديث يبدو وكأنه يرجع الى أبعد من ذلك ، الى فترة لم تكن الأفكار أو الكلمات قد تكونت فيها بعد ، وحينما كانت المشاعر الانسانية بدائية لا يمكن الافصاح عنها •

لقد زادت صحتنا وقابليتنا السطحيتان في قوة جهلنـا فترة طويلة من الزمن ، وطمستا الدلائل التي أحاول تسليط النور عليها هنا • ففي فنون الانشاء والصنع يجب على المرء أن ينظر من وراء الشكل الخـارجي ليستشف الضعف الداخلي : فاذا عبرت البناية عن تفككها فانها لاتصمد ، واذا السيارة أنمت عن تحللها توقفت عن المسير • حتى في الفن المعماري الحديث تكون الدلائل مربكة • فعندما يتفحص المرء بناية حديثة أو مركزاً حضرياً جديداً بعين نقادة ، غير متـأثر بالألواح والاعلانات الزاهيـة السائدة ، بالوقت الحاضر ، يجد ، ويا للأسف ، نفس التفاوت بين الشكل الخارجي والارتباك الداخلي • فاذا أخذنا الفن المعماري السائد اليوم على سبيل المثال يمكننا تصنيفه الى ثلاثة أقسام هي : العلبة والهرم والمضجع المطواع •

يمكن تعريف العلبة بأنها غلاف خارجي ، غشاء من زجاج أو صلب أو خرسانة ، لا ينم شـكله عن علاقـة بوظائفيـة أو غرضيـة الشيء أو الفعاليات التي يضمها • غرض العلبة الوحيد هو ابهار عيـون المتطلعين والاعلان عن البضاعة وبيعها • مثل هذا الغلاف يكون ، حسب التعريف ،

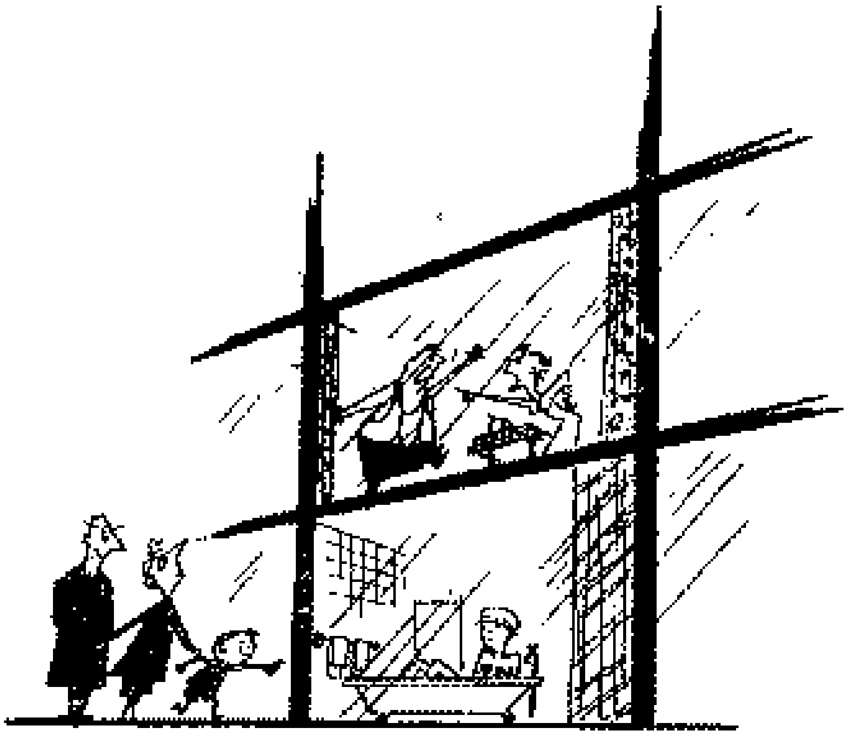

العلبــة

ذا تأثير أكبر عندما يزداد خلواً • أما مايتعلق بمهمات حيــاة العائلة في قيض الصيف وزمهرير الشتاء ، فان المسكن المزجج تماماً ، وهو العلبـة المثالية ، لا يمسي الا مكاناً للتعذيب • وهكذا يكون اغفـــال المضامين الانسانية غلطة انموذجية لعصرنا الحاضر •

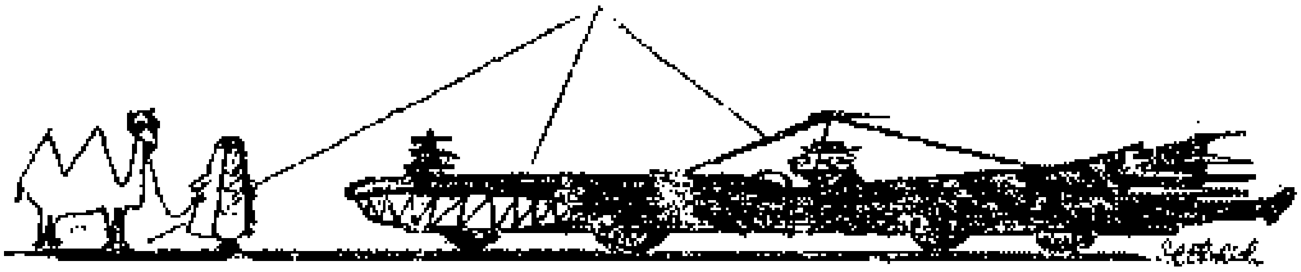

الهـــرم

أما الهرم ، وهو من أقدم الانحـــرافات المعمــــارية ، فقد لا يكون انتعاشه في عصرنا هذا أمراً عرضياً ، رغم أن الأشكال الجديدة تمســــخ طبيعته • أن الأبنية الهرمية سواء أخذت شكل ناطحة سحاب ارتفـاعهـا ميل أو أساس ناتيء تكاد كلفة انشائه تبلغ كلفة البنـــاية التي تحمله ، تتطلب التضحية بمتطلبات انسانية مهمة لقاء فخفخة فارغة وخيلاء خاوية • بموجب هذا التعريف تكون سياراتنا الاميركية الجديدة أمثلة صميميــة للانشاء الهرمي ، وهكذا ، بمقياس أوســـع ، تكون قنـــابلنا الــذرية والهيدروجينية ، لأنها جزء من المذهب الجديد في القتل ، وربما ستصبــح مقابر الجنس البشري كله ، لا مقابر بضعة فراعنة •

النقطة الثالثة والأخيرة في التركيز الفيزيائي المفرط وبالتـــالي من التفكك العضوي هي المضجع المطواع • فهذه وسائلنا الآلية المفيدة المدهشة تصبح مجرد مطواع عندما تهيمن احدى العمليات الميكانيكية أو طريقة ما في التنظيم الآلي على ما عداها من الفعاليات وتكبح جمـــاح العمليـــات الأساسية الخاصة بالانسان • هناك وسائل أفضل بكثير من طريقة حارس الفندق الاغريقي الذي كان يبتر سيقان ضحاياه أو يمد في أجسامهم لتلائم

المضجع المطواع

سريراً من حديد يختاره اعتباطاً • لا يتأتى الخطر من استعمال المـاكنة ، بل ازاحة الانسان كعامل مسؤول ، يجب عليه السيطرة على نتاج الماكنـة وتوجيهها لخدمة الأغراض الانسانية • اننا اذ نبدأ بتطوير الناس تطويراً يتفق ومتطلبات الماكنة فسوف لن يكون هنـــاك حد للمســـخ الجسماني والعقلي المحتمل حدوثه • ففي عالم يفتقر الى الغرض لابد للـــمكننة أن تسود •

لا زال الكثير من معاصرينا يعتقدون بامكانية حل مشاكل زماننـــا بالاكثار من تطبيقات العلم والتكنيك ، ولكن هذه النظرة تنم عن فشل في فهم حدود هذه المجالات ، حتى تصبح جزءاً من مفهوم للحياة والتطـــور البشري أكبر سعة واكثر عمقاً • اننا نخادع انفسنا اذا ما تصورنا اننـا سنوفي متطلبات الحياة العصرية حقها أو نعبر عن أفكار الحضارة الحديثة اذا ما انتجنا الكثير الأكثر من العلب الانيقة ومن الاهرام الزاهية والمكائن الآلية ذات الأدمغة لالكترونية المتصلة بها •

ان أغلب فعالياتنا الحديثة المفضلة ، في الواقع ، ترجـــع بالوراثة المباشرة الى العصر البرونزي ، كما انها تعبر عن التحديدات الصبيانيـــة لفكر ذلك العصر • اننا في الحقيقة نستخدم أفضل الوسائل التكنيكيـــة واتقنها في العلوم الرياضية والفيزيائية بغية اشباع نزعة قديمة في الوجود •

هذه النزعة تسقط من حسابها تماماً المعطيات التأريخيـة للآلاف الخمسة الماضية من السنين والنظرات الخلقية المتراكمة للأديان السماوية ومفاهيمنا المتعمقة لطبيعة الحياة نفسها ، والتي تتجاوز كل شروداتنا الآيديولوجية • لقد جعل انسان العصر البرونزي نفسه ، بتأكيده الزائد على دور التنظيم والسيطرة الخارجية ، غريباً عن عالم الحياة • هذا هو سبب علتـه وعلة اتباعه الذين لا زالوا يدأبون على رعاية المفهوم الصبياني المتنـاقض في اسباغ القوة اللا متناهية والغنى الذي لا ينفد والسعة غير المحدودة على الماكنة في جميع الاتجاهات من غير أن يكون هناك أي مذهب صـميمي في السيطرة ، بل من غير ان يكون هناك أي غرض أو هدف غير القوة من أجل القوة والحركة من أجل الحركة والسرعة من أجل السرعة ، وأخيراً في زماننا هذا الخراب الكامل والابادة التامة من غير غرض منطقي مهما كان نوعه •

ان الفعاليات الحياتية ، بعكس عالم الذرة والنجوم ، عمليات ذاتيـة في توجيهها هدفية في نشدانها • انها تندفع عند الانسان الى الوعي عـلى شكل أفكار ومشاريع وخطط • هذه النزعات المتعلقة بمستقبل محتمل ، فاذا أهملت مرة أو كبحت ، فقدت الحياة معنـاها عنـد الانسان • وان الانسان كلما ارتقى في تطوره توسعت حاجته للتفكير مرة أخرى في ماضيه واعادة بناء حاضره والتدبر لمستقبله • كما أن الحب والابداع ضـروريتان من ضرورات نمو البشرية وتقدمها •

على هذا تصبح متطلبات الحياة أكثر مراوغة وأشـد تعقيـداً من متطلبات الآلة ، ولهذا السبب يمسي الحل الميكانيكي الجيد للقضـايا البشرية مجرد جزء من حل عضوي مناسب يفي بمتطلبـات الحياة بكل ابعادها • في حالة الطفل الرضيع ، هناك دلائل تجريبية تبين أن الطفل ، مهما أعطي من غذاء ، لا يترعرع بصورة سليمة ما لم يكن مغمـوراً بالحب والدلال • بنفس الدليل يصبح السماع والابصار بالنسبة للصحة بمنزلة علم الصحة والنظافة في الاهمية منها • ان الفنون المعمارية أو الهندسية أو السياسية أو الطبية ، اذا لم تعترف بسيادة الحياة ، انتسبت الى العصـر البرونزي الهمجي ، لا الى عصرنا ، فكيف بها الى المستقبل !! ان عالم الماكنة يقابل جهاز الانفعالات والعمليات التلقائية في الجسم • فعنـدما نكيف للحياة والواقع بصورة صائبة فان الافعال السامية في الانسان ، تلك التي تخص المعاني والقيم والشكل سوف تسود وتغير كل أعمـالنا الأداتيـة والعملية بحيث لا يبقى جزء من حياتنا اليومية فارغاً أو تافهـاً • والى أن نعترف بدور هذه الفعاليات السامية فان القوى الجبارة التي يسيطر عليها الانسان سوف لا تفسح المجال الا الى الانفعالات والأعمـال المـدمرة التي تسعى قوى الحياة عن طريقها الى التماس الاستقلال الـذاتي والحرية التي حرمت عليها •

الانسان اليوم يهيمن على قوى الطبيعة بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، وقد توصل الى مقدرة آلهية في ادراكها وتوجيهها • بيد أن كل هذا الذكاء العلمي والامكانيات التكنيكية ستذهب سدى ما لم ندرك باننا يجب أن نخلق رعيلا جديدا من أمثـــال غاليلو وابن سـينا يعيننا على تحقيق قدراتنا الانسانية بالتمام وتوسيع كل طاقاتنا الانسانيـــة في الاحساس والتصور والحب والابداع بصورة خاصة • وما لم تكن كل أفعالنا أعمال حب ـ وأعني بالحب كل معانيه ، من الغزلي الى الحب الآلهي ـ فانهـــا ليست بعد مشمولة بالمضمار الانساني •

ليس في نيتي ، ضمن نطاق هذه المحضرة ، أن أتعمق أكثر من هذا • لقد سبق لي ان قدمت شرحاً أوفى لهذه الأفكار في كتاب صـــغير يدعى « تطورات الانسان » • في ذلك الكتاب حاولت تصوير مرحلة أكثر تقـدماً في تطور الانسان تعمل على الرقي بكل مناحي التجارب التاريخية وتوحيدها ومن ثم تجاوز التحديدات التي أدت بالمدنيات السابقة الى الزوال • ولحسن الحظ ، فاني بمجرد تقديم هذه الكلمة ، تمكنت من ايضاح النقطة الرئيسية في الموضوع ، لاني لم أتحدث اليكم بصفتي كاتباً أو فيلسوفاً أو استاذاً ، ولا بصفتي ناقداً معمارياً أو بروفسوراً في تخطيـــط المـــدن أو خبيراً اخصائياً • على العكس من ذلك تحدثت اليكم بصفتي انساناً ، فرداً مـن حقه أن يزاول كل الفعاليات الحياتية والروحية للانسان ، وعلى ذلك يعتبر كل ما يعدو ذلك من المناصب ثانوياً وزائداً • باختصار تجرأت أن أكون انساناً ، وأن أتوجه اليكم بصفتكم رجالا ونساء بسطاء • وبكل تواضـــع أدعوكم لاتباع هذا المثل ، في تفكيرهم وفي عملكم وفي علاقاتكم الاجتماعية والعائلية • نعم اجرأوا على أن تكونوا انسانيين • تجرءوا على وضع الحكمة فوق المعرفة والحب فوق القوة والكل الناقص الذي ينبض بالحياة فـــوق الجزء الكامل معدومها • ليس من السهل أن نكون انسانيين ، ولكن الذين لهم الشجاعة على عدم التخلي عن انسانيتهم سيقوون غداً ، وفي جو أقـل عتمة ، على التطلع مرة أخرى الى قدسية الله •